الفصل السابع

صحة العقل ومرضه

إني أدرك تمام الإدراك ما يعترض الباحث من صعوبات حينما يريد أن يضع تعريفًا دقيقًا جامعًا مانعًا لأمر من الأمور، أو لاصطلاح من المصطلحات العلمية، ولهذا لا أرى من الهين تحديد معنى الصحة العقلية، فهو من الأمور الاعتبارية التي تتفاوت في فهمها العقول، وتختلف الأذهان، وما ذلك إلا لعدم وجود مقياس مضبوط به تقاس حالة الشخص، ويعرف ما إذا كان صحيح العقل أو مريض النفس، ولم يصل الأطباء بعد لتعيين حد فاصل بين الصحة والمرض.

غير أن التعريف الصعب البعيد المنال هو التعريف المنطق الجامع المانع، أما التعريف الذي يتقبله العرف العام، ويقع لدى الباحث العادي موقعًا حسنًا فقد يكون سهلًا ميسورًا؛ فلنا في ضوء هذا أن نقول في تعريف الصحة العقلية إنها: «قدرة الفرد على أن يساير في تفكيره وسلوكه بيئته واستعداده مسايرة مرضية»، وأن نقول تبعًا لذلك: «إن الشخص السليم العقل هو الذي يسلك في تفكيره وأعماله مسلكًا عاديًا منسجمًا – ولو إلى حد ما – مع استعداده من جهة، ومع بيئته من جهة أخرى».

وإنما قلنا «واستعداده» لأن الحكم على السلوك لابد أن ينظر فيه إلى استعداد الشخص، وثقافته، وسنه، ونوعه، فإذا كان سلوكه منسجمًا مع هذه الأمور حكمنا عليه بأنه عادي – وإن كان يعد شاذًا بالنسبة

لمستوى عقلي آخر، أو بالنسبة لسلوك شخص مثقف ثقافة راقية، وبدهي أنه لا ينبغي أن نقيس سلوك الطفل بمقياس سلوك الرجل، ولا أن نجعل سلوك الرجال وتصرفاتهم مقاييس للحكم على سلوك النساء وتصرفاتهن، فكل يعمل على شاكلته، وسنزيد هذا الموضوع بيانًا فيما يأتي:

هذا هو المعنى الإيجابي للصحة العقلية، أما معناه السلبي فهو: خلو سلوك الشخص العقلي والعملي من أنواع الشذوذ التي يستنكرها العرف العام بالنسبة له، وسنعرض لأنواع الشذوذ هذه عند الكلام على المرض العقلي، وبديهي أن الصحة العقلية هي الأصل في الخلقة البشرية؛ فالله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه بالعقل الراجح، والذكاء الفائق؛ فالأصل في الإنسان باعتباره إنسانًا أن يسلك في تفكيره وأعماله مسلكًا سليمًا ملائمًا لاستعداده وبيئته، وألا يشذ عن هذا المسلك إلا لأسباب طارئة على نفسه، خارجة عن كيانها الذاتي.

ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الصحة العقلية أمر طبيعي في الإنسان، وأن المرض أمر طارئ غير طبيعي.

وإذا سلمنا بأن الصحة هي الأصل لم يكن من المستساغ أن تسأل عن أسبابها، فقديمًا قيل: «إن ما جاء على أصله لا يسأل عنه».

على أن لقائل أن يقول: «لماذا لا نسأل عن سبب الصحة العقلية؟ وما الذي يمنع من أن نسأل: «لماذا كان فلان هذا صحيح العقل قوي الجسم؟ ثم نتلمس الأسباب في أسلوب حياته الخاصة ونوع ثقافته، والظروف التي أحاطت به؟ ومن السهل أن نرد على هذا بأن البحث في

أسباب الصحة لا يعنينا؛ لأن أحوال السليم العادي لا تستلفت الأنظار، ولا تسترعي الانتباه أما المريض فهو الذي يعنينا أمره، وتهمنا معرفة أسباب علته؛ كي نعالجه فنكفي شره، ونعود به إلى الحالة الطبيعية المألوفة في غيره من الأصحاء، فيكون عضوًا عاملًا من أعضاء المجتمع.

فلننتقل إذًا إلى البحث في المرض العقلي؛ فقد يلقى البحث فيه ومعرفة حقيقته ضوءً جديدًا على معنى الصحة العقلية فنزداد علمًا بحقيقتها، فمن الثابت المأثور: أن الأشياء تتميز بأضدادها:

ومن خير ما قيل في تعريف المرض العقلي: «أنه تجاوز المستوى العادي[1] تجاوزًا ملحوظًا في التفكير والانفعال أو العمل، إما بالضعف، وإما بالشذوذ»، ولا يدخل العرف العام في عداد الأمراض العقلية حالات الاضطراب العقلي الوقتي الناشئ مثلًا عن صدمة انفعالية قوية مؤقتة، أو عن تناول مواد مخدرة، أو عن الإصابة بمرض جثماني شديد، كالحمى التي يصحبها في الغالب أوهام وخيالات، ويضيق معنى المرض العقلي في رأي بعض خواص المفكرين فلا يشمل عندهم بعض حالات الضعف العقلي المحامل، ولا فقد بعض العناصر العقلية البسيطة؛ فمن فقد عاطفته أو خمدت جذوة ذكائه، لا يعد مصابًا بمرض عقلي في نظر هؤلاء الذين يقصرون الأمراض العقلية على الحالات العقلية البادية الشذوذ؛ كالصرع، والخور، والميلانخوليا.

ويرى رجال القانون أن الشخص لا يوصف بأنه سليم العقل

---

٨٦) راجع مقالة Insanity في قاموس علم النفس والفلسفة.

Dictionary of Psychology and Philosophy, Edited by Baldwin.

Sane إلا إذا قدر على التفرقة بين الصحيح والخطأ من الأعمال، وعُرِف بقوة الذاكرة إلى حد معقول، واستطاع أن يدير شئونه الخاصة بشيء من الحزم، وبناء على هذا الاصطلاح القانوني يدخل في الأمراض العقلية ضعف التفكير الذي يبدو في عدم تمييز الخطأ من الصواب من الأعمال، وكذلك ضعف الذاكرة إلى درجة ملحوظة، والعجز عن التصرف في الشئون الخاصة تصرفًا معقولًا، أما علماء النفس والعلاج النفساني فيرون أن المرض العقلي يتسع فيشمل جميع حالات الشذوذ في التفكير والإدراك، التي يترتب عليها شذوذ في الأعمال الإرادية والسلوك.

وتمتاز الأمراض العقلية بهذا المعنى بأنها حالات خروج عن الحد المألوف في الحياة العقلية، إما بالزيادة وإما بالنقص، فمجرد تقلب الانفعالات أو اضطراب التفكير أو السلوك أمر عادي يعرض حتى لأصحاء العقول، ولكنه إذا جاوز حده، أو أصبح صفة ثابتة صار مرضًا عقليًا في حاجة إلى علاج، وكذلك خمود جذوة الانفعال، أو انطفاء شعلة التفكير، أو ضعف الإرادة ضعفًا بينًا يظهر في سوء التصرف أو اعتقال الإرادة[1]– كل هذه تعتبر أمراضًا عقلية إذا كانت عادية راسخة في النفس؛ لأنها تمتاز بتدهور أو هبوط في الحياة العقلية.

ويستدل على المرض العقلي بأمرين: أحدهما باطني، ويعرف من وصف المريض نفسه لانفعالاته وأفكاره، والآخر خارجي وهو سلوك المريض أو أعماله الصادرة عن إرادته.

(٨٧ Abulia

ومن الخطأ أن نعتمد اعتمادًا كليًا على الدليل الثاني ونهمل الأول؛ فقد دلت التجارب على أن البواعث الشاذة قد تؤدي على سبيل المصادفة إلى سلوك مرضي مقبول، وأن الأحكام الصحيحة قد تكون نتيجة لشكوك وأوهام وتفكير سقيم، وأن الميول الشاذة قد تقاوم أو تكبت فلا تظهر آثارها في الخارج، وأن التضارب بين الميول والرغبات النفسية المكبوتة الخفية وبين الظروف الخارجية كثيرًا ما يكون سببًا في الاضطراب أو المرض العقلي.

وينبغي ألا نحصر المرض العقلي في اضطراب الناحية الإدراكية، نعم إن التفكير الشاذ المعوج، والاستسلام للخيالات والأوهام من أهم مظاهر المرض العقلي التي يجب أن نعني بها، ولكن يجب ألا ننسى – مع ذلك – الشذوذ في الحياة الوجدانية الذي يشمل: كثرة المخاوف، والاستسلام الدائم للغضب، والانغماس في الفرح والحبور؛ ولا جمود التأثر بالمثيرات العادية، أو التباطؤ في تلبيتها؛ ولا تناول الأعمال القذرة التي ينفر منها الذوق السليم وينكرها العرف؛ ولا تقلقل الإرادة وتقلباتها؛ ولا التمادي في العناد والمشاكسة؛ ولا انقسام الشخصية وتمزق شملها – فإن هذه كلها دلائل على أمراض عقلية ينبغي التنبه لها، والعمل على معالجتها.

فالمرض العقلي ليس مقصورًا على خلل في الناحية الإدراكية، ولكنه يشمل الشذوذ في الناحيتين الوجدانية والنزوعية، وفقد التوازن بين الميول النفسية والأفكار وبين السلوك والأعمال.

وينبغي أن يرجع في تقرير الشذوذ إلى أحوال الفرد وظروفه الخاصة،

ويدخل في هذه:

١) سنه.
٢) مستواه العقلي.
٣) نوعه.
٤) منزلته الاجتماعية.
٥) بيئته الاجتماعية.

فما هو عادي بالنسبة للطفل قد يكون شاذًا بالنسبة للرجل؛ مثال ذلك: ما يلحظ في الطفل من فرح ومرح زائد، فهو طبيعي بالنسبة له، ولكنه إذا صدر عن شاب أو رجل فإنه يعد دليلًا على مرض عقلي.

وما هو مألوف بالنسبة للغبي قد يكون شاذًا بالنسبة للذكي، وما يقبل من المرأة قد لا يقبل من الرجل، وما نألفه من غير المثقف قد نستنكره من المثقف، وما هو شائع بين الناس في الأوساط المتأخرة في الحضارة، قد يعتبر شاذًا في البيئات الراقية التي قطعت في سبيل الحضارة مراحل حاسمة، مثال ذلك: الاعتقاد الجدي في الشعوذة؛ فقد كان شائعًا مستساغًا في العصور الماضية، وهو الآن مقبول بين القبائل المتأخرة في الحضارة، ولكنه يعد دليلًا على مرض عقلي إذا صدر عن رجل مثقف يعيش في بيئة راقية؛ فإذا قال لك رجل من هذا الطراز إنه يعتقد أن أحد المشعوذين، يقتفي اثره ويقصد به السوء بأعماله السحرية، فاعلم أنه مريض العقل، في حاجة ماسة إلى علاج نفساني.

وهذا كله بين لا يحتاج إلى مزيد إيضاح.